تحت الرعاية السامية لمعالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي

SOUS LE HAUT PATRONAGE DE MONSIEUR, LE MINISTRE DE L' ENSEIGNEMENT SUPERIEUR ET DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE

الجـامعة الإفريقية العقيد أحمد دراية - أدرار

L'UNIVERSITE COLONEl AHMED DRAYA-ADRAR

تنظـــــــم

ORGANISE

الملتقى الدولي الحادي عشر

Onziéme Colloque International

التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة

Le Soufisme en Islam et Les défis contemporains

أيام: ٩-١٠-١١ نوفمبر ٢٠٠٨

المحور الأول:

تصوف مفاهيم ومصطلحات

مراحل تطور علم التصوف

أ. بشيري جلطي

جامعة وهران

مقدمة:

التصوف كعلم متميز بمناهجه ومؤلفاته، نشأ عندما أخذ المهتمون به يدونونه كتخصص قائم بذاته مفصول عن باقي العلوم الأخرى المعروفة لذلك العهد، كالفقه وعلوم الحديث والتفسير وعلم الأصول والمنطق، فقد اتجه المهتمون بتدوين هذا العلم إلى اثبات شرفه وفضله على سائر العلوم .

ومع مرور الوقت وتطور علوم الدين ظهر دارسو علم التصوف في جميع الأنحاء وبشتى اللغات، وظهرت معها تقسيمات أخرى لهذا العلم كالتصوف الإيجابي والسلبي 5 .

ومهما يكن، فإن هذه البحوث على مختلف صيغها قد مكنت للتصوف كعلم يتداول في عدة اختصاصات أدبية وفلسفية وسيكولوجية وتربوية وانتروبولوجية .

كما أن هذه المرحلة التي تشكل فيها علم التصوف تعتبر مرحلة الخصوم مع الفقهاء، فالأوائل لم يتوقعوا هذه الاصطدام مع الفقهاء. فالمتصوفة إذا كانوا قد جنحوا إلى العزلة فذلك لكي يتفرغون للعبادة وقراءة القرآن، لكن الفقهاء أسخطهم أن يروا أناسا يتحدثون عن الضمير ويحتكمون إلى الباطن، في حين أن الشريعة تحاسب على الأعمال الظاهرة وتعاقب الناس على آثامهم ولا حيلة لها مع النفاق، ولهذا السبب اتجه الفقهاء إلى نكران التصوف واتهامه بالزيغ .

أما إذا عدنا إلى الأصول التي سلكها هذا العلم وكيف تطور من سلوك يسعى إلى تصفية النفس بالمجاهدة والرياضة، والانتقال بها من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام نجد أن المراحل التي مر بها هي:

1 . المرحلة الأولى**:**

وهي مرحلة التدوين والتأريخ ومن أبرز روادها:

ا . أبو نصر السراج الطوسي: الملقب بطاووس العلماء المتوفى378 هـ) يقول عنه نيكلسون: " ليس لدينا إلاّ القليل عن تاريخ حياة السراج، ومن العجيب أن يغفل مؤلفو التصوف القديم شأنه، فلم يؤلفوا عنه أسفارا تحوى لنا تاريخه وتراجمه وأحواله، مع أنه كان فريد عصره راسخ القدم في علوم القوم، وشيخا لمذهبهم في الزهاد والتصوف " ويستطرد قائلا: على أني لو أتيح لي أن أكون أحد معاصريه المؤلفين ما أظنني واقف عند هذا الحد من النعت والتعريف، ولعمري ما كنت إلا جاهدا نفسي لكشف النقاب عن حياة وأعمال هذا الإمام الجليل، عساني أكون قد افتتحت مدرسة عليا لتخريج الفحول من الزهاد المتصوفة من أهل الرقعة الفقراء المخلصين"2

والسراج من الذين أرخوا ودونوا لعلم التصوف بكتابه المسمى باللمع 1، وهو من المؤلفات التي تعد أكبر موسوعة صوفية عرفها التاريخ، والمشهور في هذا الكتاب أنه لم يتورط في طروحات معرفية فلسفية غنوصية، فصاحبه قد التزم بذكر مشايخه التصوف وعرض أشهر أقوالهم كما عرض أهم المفاهيم والمصطلحات المتداولة عند القوم . وقد جاء مؤلفه مقسما كالتالي: باب في تعريف التصوف ونسبة الطريقة وباب في الأحوال والمقامات وباب لصلة التصوف بالسنة وباقي البواب تبحث في الآداب والسماع والوجد وإثبات الآيات والكرامات والشطح .

كما أنه يتجنب الطرح المسيحي أو الهندي أو الفارسي، فهو من الكتب المقبولة عند السنة والسلفيين وفي هذا السياق يقول محقق اللمع: " فمؤلف اللمع، قد أنجبت مدرسته الأقلام الكبيرة آلتي حفظت لنا ورسمت أمامنا الطريق وصانته وحمته من الدخيل الغريب "1.

يضع السراج في كتابه اللمع قاعدة للتصوف على أساس العلم والعمل والتحقق فيهما.ومن الأقطاب الذين ساروا على نهج أبي نصر السراج الطوسي:

ا . أبوعبد الرحمان سلمى صاحب كتاب طبقات الصوفية، ويعد الكتاب من مؤلفات القرن الرابع الهجري، وله مؤلفات عديدة في الحديث والتفسير والتصوف، لكن أشهرهم طبقات الصوفية. ويشتمل الكتاب على خمسة طبقات من الشيوخ، كل طبقة تتكون من عشرين شيخا. والكتاب في أصله تأريخ لأشهر المتصوفة، ويذكر فيه مشاهير أقوالهم. ولما كان المؤلف لا يتطرق إلى المسائل المتعلقة بالمواجيد والأذواق والأحوال والمقامات، فإننا لا نجد فيه الخلاف القائم بين الفقهاء والمتصوفة 2.

ب . من أقطاب هذه المرحلة أبو طالب المكي صاحب كتاب "قوت القلوب" وهو من معاصري أبي حنيفة النعمان .

ج . ومنهم كذلك أبو بكر محمد الكلابادي الملقب بتاج الإسلام وهو صاحب كتاب " التعرف لمذهب التصوف " يعرض في المؤلف منهج التصوف وطريقتهم في فهم الكتاب والسنة، وربط فيه بين علم الظاهر وعلم الباطن . ويتميز هذا الكتاب بالاعتدال والصدق في تصوير اتجاه الصوفية في توحيدهم وعقائدهم وفي سلوكهم وصفاتهم وفي سيرهم وأحوالهم ومقاماتهم، والغرض من تأليف هذا الكتاب كما جاء على لسان صاحبه "لينفي عنهم تحرض المحرضين وسوء تأويل الجاهلين، ويكون بيانا لمن أراد سلوك طريقهم" 3

يتناول في الباب الأول ما جاء في سبب تسمية والباب الثاني يسرد فيه طبقات الصوفية، ثم تعرض بالشرح لعقائدهم، وفصل آخر خصه للحديث عن المصطلحات والأركان.

د . أبو القاسم بن توازن القشري المتوفى " 465 هـ " صاحب الرسالة القشرية، وتعد من أشهر الموسوعات في علم التصوف. سلك فيها القشيري نهج السراج وسلمى وزاد عليهما أمورا تتعلق بالأحوال

والمقامات والسكر والشطح، كما تناول الأمور التي أمتحن فيها الصوفية وكشف عن كثير من المسائل التي يدعيها المنتحلون، وأكد على طريقة السلف الصالح. يمتاز هذا الكتاب عن غيره من كتب القوم بتوجيه العناية لنقل أقوال المشايخ من رجال التصوف.

هـ . الإمام أبو حامد الغزالي نهاية القرن الخامس وجد التصوف مذهبا قائما بحد ذاته ووجد المتصوفة كفرقة لها كيانها ومكانتها الرفيعة في المجتمع، فآمن بالتصوف والصوفية وكشف عن براءته من أمراض الدنيا وشهواتها وفي هذا الشأن يقول:

وانكشف لي في أثناء هذه الخلوة أمورا لا يمكن إحصاؤها واستقصاءها، لكن القدر الذي أأكده لينتفع به، هو أني علمت يقينا أن الصوفية هم السابقون لطريقة الله خاصة.بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء على أن يبدلوا شيء من سيرهم لم يجدوا إلى ذلك سبيلا فإن جميع سكنا تهم وحركاتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة نورا يستضاء له .1

إن سلسلة التصوف السني الإيجابي . كما يصطلح عليه صاحب كتاب الفلسفة الصوفية في الإسلام . تمتد إلى عبد الوهاب الشعراني المتوفي القرن التاسع عشر ميلادي، وإلى غاية القرن العشرين تحت راية أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي رائد الطريقة العلاوية .

ولما كان التصوف ذا شقين شق عملي تعبدي وشق معرفي يبحث في الصفات وحقائق الموجودات، ظهر خصوم آخرون من المتكلمين، وأصبحت كتب القوم تداول أربعة أبحاث هي:

1. المجاهدات وما يحصل عنها من الأذواق والمواجيد ومحاسبة النفس.

2 . الكلام في الكشف والحقيقة المدركة عن عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والروح. وتحدثوا كذلك عن حقائق كل موجود غائب أو شاهد وترتيب الأكوان في صدورها عن مجودها.

3 . التصرف في العوالم والأكوان بأنواع الكرامات .

4 . ألفاظ مبهمة صدرت عن كثير من الأئمة يعبرون بها عن الشاطحات .1

هذه الأمور جرّت كثير من الخصوم على المتصوفة، خاصة أولئك الذين انتهجوا التصوف السلبي، أمثال السهر ودي وابن منصور الحلاج وابن عربي، وهذه تعد بداية الدخول في مرحلة ثانية

ب . المرحلة الثانية:

هذه المرحلة تميزت بفلسفة صوفية امتزج فيها الطرح الغنوصي الشرقي والغربي . وهي مرحلة عرفت بظهور نوع آخر من التصوف، يصطلحون عليه بالتصوف الفلسفي المتهم بالخروج عن الروح

الإسلامي. وأشهر أعلامه البسطامي (ت 261 هـ) الحلاج (309 هـ) والنفري المتوفى (351هـ)، وفي مدرسة أهل الملامة منذ منتصف القرن الثالث حتى نهاية القرن الرابع والسادس الهجري (250 . 370 هـ) وفي مدرسة الفارابي ما بين القرن الرابع والسادس هجري (339 . 595 هـ) والسهر وردي (578 هـ) مع المدرسة الإشرافية ثم مدرسة ابن عربي المتوفى (638 هـ).

وتمتد هذه المدارس ما بعد الحلاج والسهر وردي إلى فرعين في الغرب الأندلسي مع ابن سبعين المتوفى (667هـ) وفرع في الشرق مع ابن الفارض المتوفى (632هـ) . وكان آخر رجال هذه المدرسة الأفذاذ عبد الكريم الجيلي المتوفى (805 هـ)

وفي الاتجاه المقابل كان التصوف السني رد فعل للتصوف الفلسفي، فجاء المحاسبي كرد فعل للبسطامي وجاء أبو حامد الغزالي كرد فعل لمدرسة الحلاج . وانضمت إليهم المدارس التي آمنت بالتصوف السني الإيجابي كالأشاعرة الذين رفضوا قاطعا كل ما يشير إلى نظريات الاتصال والاتحاد والحلول ووحدة الوجود .

لكن الذي يهمنا في هذا النشوء والترقي لحركة التصوف هو أن الاهتمام الذي خصه رواده للنفس وأحوالها ودرسوها دراسة تحليلية، كما اهتموا بالأخلاق ونموها ووفق هذا درجوا على تفسير القرآن تفسيرا ذوقيا.2

ج . المرحلة الثالثة

طرق التصوف:

الإطار الذي يضم التصوف كظاهرة اجتماعية هو الطَرقية، أو الطريقة، والطريقة هي اختصاص صوفي أو الأسلوب المتميز لظاهرة التصوف في منطقة ما أو لشيخ ما، بمعنى أن كل طريقة لها سمات معينة وخصائص تنفرد بها عن الطرق الأخرى .

والطريقة الصوفية تتكون من شيخ ومريد وبيعة أو عهد، يلتزم المريد على أساس هذا العهد بسلوك معين. وللشيخ صفات وللمريد صفات وللبيعة صيغة وشروط 1. فشيخ الطريقة يتلقى طريقته من شيخ آخر بمثابة المعلم أو المرشد، أو يتلقاه مباشرة من الله عزّ وجلّ أو من الرسول صلى الله عليه وسلم يقظة أو مناما.

وهناك عدة طرق أشهرها القادرية وتنسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني (471 . 561) وهو أول من نادى بالطرق الصوفية، وقال عن طريقة ابن تيمية: (إنها طريقة شرعية صحيحة، لأنها تلتزم بالكتاب والسنة التزاما حرفيا وخاصة الجانب المعرفي للتصوف 2) . ولهذه الطريقة انتشار عبر كافة الوطن العربي . والشاذلية3، أسسها أبو الحسن الشاذلي، وتقوم على الأخذ بعلم الله الذي أنزله على رسوله، والاقتداء بالخلفاء والصحابة والتابعين، والتمسك بالكتاب والسنة إذا تعارض الكشف معها باعتبار

العصمة فيهما وليس في الكشف، وتقوم الشاذلية على العمل مع العبادة، وتفضل الغني الشاكر على الفقير الصابر .

كما توجد طرق أخرى ذات الشهرة الكبيرة مثل الطريقة السنوسية، والأحمدية والهبرية، والبرهانية النقشبندية والدرقاوية .

ومن أشهر الطرق في المغرب العربي نجد الطريقة الشاذلية والدرقاوية والهبرية والعلاوية والسنوسية .

المرحلة الرابعة:

وهي مرحلة مكنت للتصوف لأن روادها كانوا من العلماء والفلاسفة الذين أعجبوا بالطرح الصوفي، فمالوا إلى الكتابة فيه معتمدين منهجهم الفلسفي أو التحقيق النقدي . كما انظم إلى هذه المرحلة نقاد التصوف والمستشرقين .

ومن أبرز رواد هذه المرحلة الفلاسفة والعلماء أمثال ابن سينا وعبد الرحمان بن خلدون، الذين لم يكتفوا بالتأريخ للتصوف، بل راحوا ينظرون له من وجهة فلسفية، ورغم الاتجاه الموغل في التفلسف عنهم، إلاّ أن المسحة الذوقية والعرفانية نجدها تطبع أعمالهم .

1 . أعمال ابن سينا الصوفية **:**

تبرز أعمال ابن سينا الصوفية في المؤلفات التالية:

ا . كتاب الإشارات والتنبيهات

ب . رسالة الطير

ح . قصة سلامان وأبسال

وفي هذه الكتب تظهر أعماله الصوفية في العناوين التالية:

أولا: العشق والشوق

من العشق والشوق تتجلى نظرية ابن سينا في المعرفة، لأن العشق يرتبط بتصور حضرة ما أو موقف ما، والشوق يتمثل في الحركة المتجهة نحو هذه الحضرة، ولهذه الحالة آثار نفسية يتولد عنها القصد أو الولع ويعبر عنها في الاصطلاح التربوي بالرغبة أو الحاجة .وبهذا المعنى يأتي ترتيب أحوال الناس ومكانتهم الصوفية، وهذا حسب درجة عشقهم واشتياقهم .

فالعاشق لذاته أولا، أي معشوقه هو ذاته ومن ذاته، ثم المبتهج، وهم الجواهر العقلية القدسية، التي لا ينقطع عشقها وشوقها وهؤلاء هم الأولياء والقدسين

وطرح ابن سينا لهذين المعنيين يتجه إلى إثبات العشق للجواهر العاقلة والشوق لبعضها من خاصة الخاصة.

ولا يمكن فهم المصطلحين العشق والشوق اللذان هام فيهما ابن سينا هياما صوفيا إلا في سياق مباحثه حول النفس وأنواعها.

يقسم ابن سينا النفس إلى ثلاثة أنواع هي:

1 . النفس النباتية**: وتحتاج إلى نمو وغذاء يزيد فيها بمقدار تحلل ذلك الغذاء. وهي مشتركة بين جميع أنواع الكائنات الحية . وتتميز هذه النفس بثلاثة قوى، هي القوى الغذائية، وهي قوة تجعل جسما آخرا ينحل متمثلا في النفس النباتي، ثم القوى المنمية، وهي قوة تزيد في الجسم طولا وعرضا وعمقا، والقوة المولدة، وهي التي تأخذ من الجسم التي فيه جزءا هو شبيها له بالقوة لتستمد من جسما آخرا بالفعل .**

2 . النفس الحيوانية: **وهي مختصة بحركة الأعضاء وتنقلها إراديا، وهي محكومة بقوتين محركة ومدركة، والمحركة تقع على قسمين، فهي محركة باعثة تشمل القوة النزوية والشوقية، ولها شعبتان، شعبة تسمى القوى الشهوانية التي تبعث على تحريك الجسد نحو المراد النافع، ومحلها الأعصاب والعضلات، ومنها القوة المدركة من الداخل ومن الخارج فالمدركة من الخارج هي الحواس، والمدركة من الباطن: (فبعضها قوى تدرك صور المحسوسات، وبعضها قوى تدرك معاني المحسوسات، ومن المدركات ما يدرك ويفعل مع، ومنه ما يدرك ولا يفعل، ومنها ما يدرك إدراكا أوليا، ومنها ما يدركا إدراكا ثانيا، وعنها ينبثق إدراك الص،ورة والمعنى 2). وقوة غضبية، تدفع بالجسم إلى الهروب أو المدافعة .**

3 . النفس الإنسانية أو النفس الناطقة

وهي خاصة بالإنسان وحده دون سائر الحيوان، وتنقسم إلى قوة عالمة أو نظرية وقوة عاملة أو عملية، فالقوة النظرية هي التي تنطبع بالصور المجردة عن المادة، (فإذا كانت مجردة بذاتها، فذاك، وإن لم تكن مجردة تصيرها مجردة بتجريدها إياها، حتى لا يبقى فيها من علائق المادة شيء 3) وللوصول إلى هذا الحدّ، تمر هذه القوة بثلاثة مراحل، هي الاستعداد المطلق

الذي لا يخرج إلى الفعل، والاستعداد بمجهود، الذي يتحقق عند الصبي الذي اشتد عوده للكتابة وعرف الدواة والقلم وبسائط الحروف . والاستعداد بالآلة وهو أن يفعل ما شاء متى شاء بلا حاجة إلى اكتساب، وهو ما نصطلح عليه بالتعلم . ومن هذا الاستعداد، يتدرج العقل من الهيولاني1 إلى العقل بالملكة إلى عقلا قدسيا الذي هو من جنس العقل بالملكة لكنه رفيع جدا، ليس مما يشترك فيه الناس كلهم 2 .

ومن هذا العقل يحدث العشق والشوق باعثان أساسيان لاكتساب معرفة خاصة ذوقية لا تليق إلا بمقام الخُلص .

ثانيا . العرفان:

المبحث الصوفي الثاني خصّه ابن سينا لمقامات العارفين، وفيه يتحدث عن أحوال أهل الكمال من النوع الإنساني الذين يسميهم بالعارفين، وقد تحدث عنهم في النمط التاسع من كتابه الإشارات والتنبيهات، وهو من أَجَلِ ما في هذا الكتاب، حيث يقول فخر الدين الرازي: (فإنه رتب فيه علوم الصوفية ترتيبا ما سبقه إليه من قبله ولا لحقه فيه من بعده3) ويقول عبد الرحمن بدوي: (إن ابن سينا في هذا النمط قد حلق تحليقا صوفية رائعة 5) .

ويقول ابن سينا عن العارفين: (إن للعارفين مقامات ودرجات يخصّون بها وهم في حياتهم الدنيا، دون غيرهم، فكأنهم وهم في جلابيب من أبدانهم قد نفضوها وتجردوا عنها إلى علم القدس، ولهم أمور خفية، وأمور ظاهرة عنهم يستنكرها من ينكرها، ويستكبر ها من يعرفها 4) .

ومن قصة سلامان وأبسال* يحدد لنا مقامات العارفين التي ينتهي تصنيفها بعد التمييز بين الزاهد والعابد والعارف، فالزاهد هو المعرض عن متاع الدنيا، العابد هو المواظب على فعل العبادات، وأما العارف هو المتصرف بفكره إلى قدس الجبروت، مستديما لشروق نور الحق في سرّه . ومعنى الكلام أن العارف لا يقصد بعبادته الجزاء، لأنه متعلق بالحق وحده دون أي هدف آخر.

وأولى درجات حركة العارفين: الإرادة، وهي الرغبة في اعتلاق العروة الوثقى، فيتحرك سيره لينال روح الاتصال، وما دام على هذا الحال فهو مريد .

والمريد يحتاج إلى رياضة، والرياضة متوجهة إلى ثلاثة أغراض هي:

ا . الإيثار

ب . تطويع النفس الأمارة للنفس المطمئنة لتنجذب قوى التخيل والوهم إلى التوهمات المناسبة للأمر القدسي، منصرفة عن التوهمات المناسبة للأمر السفلي .

ج . تلطيف السرّ

بهذا الترتيب يؤسس ابن سينا لنظرية المعرفة الصوفية وطرق التوصل إليها، فيرى في الزهد الحقيقي طريق لتطويع النفس، وفي العبادة المشفوعة بالفكرة تطوع النفس والوعظ، أما تلطيف السرّ فيعين عليه الفكر اللطيف والعشق العفيف الذي يأمر فيه شمائل المعشوق وليس سلطان الشهوة .

فرياضة النفس هي نهيها عن هواها وصرفها إلى طاعة مولاها، وهذا يتوقف على حصول الاستعداد لذلك وزوال الموانع الداخلية والخارجية، وتطويع النفس الأمارة بالسوء إلى النفس المطمئنة، حتى يتحول التخيل عن الجانب السفلي إلى الجانب القدسي .

ويأتي تلطيف السرّ ليهيئ الباطن كي تتمثل فيه الصور العقلية بسرعة، وينفعل معها شوقا ووجدا.

ويعين المريد على ذلك العبادة المقرونة بالفكر، والسماع الذي يرقق النفس فتصرفها عن استعمال القوة الحيوانية .

فإذا ترقى المريد في الرياضة حتى بلوغ حدا معينا (عنت له خلسات من اطلاع نور الحق عليه، لذيذة كأنها بروق تومض إليه ثم تخمد عنه، وهو المسمى عندهم حالا 1). وكل حال يكتنفه وجدان، وجد إليه (بسط) ووجد عليه (قبض) .

ويسترسل ابن سينا في ذكر الأطوار التي يقطعها المريد بالرياضة متقلبا بين الأحوال فيقول:

لكن السالك تبلغ به الرياضة بعد ذلك مبلغا ينقلب له وقته سكينة، فيصير المخطوف مألوف، والوميض شهابا بينا، وتحصل له معارف مستقرة، كأنها صحبة مستمرة، ويستمتع فيها ببهجته، فإذا انقلب عنها، انقلب خسرانا آسفا، وإذا تغلغل في هذه المعارف قل ظهوره عليه، فكان هو . هو غائب . حاضرا، وهو ظاعن مقيما، ولعله إلى هذا الحد إنما يتيسر له هذه المعارف أحيانا، ثم يتدرج إلى أن تكون له متى شاء .

ثم أنه يتقدم هذه الرتبة، فلا يتوقف أمره إلى مشيئته، بل كلما لاحظ شيئا لا حظ غيره.. إلى أن ينتقل من عالم الزور إلى عالم الحق فيستقر به. 1

ثم يبلغ ابن سينا أوج التمجيد للعارف بعبارات تحلق في سماء الوجد الصوفي مما لا نكاد نجد له مثيلا عند أكابر الصوفية الواصلين . كما يقول عبد الرحمن بدوي2 مع أن سلوك ابن سينا في الحياة على الضد تماما من سلوك الصوفية السالكين . فيقول ابن سينا: (العارف هشّ بشّ، بسّام، يبجل الصغير من تواضعه، كما يبجل الكبير وينبسط من الخامل، مثلما ينبسط من النبيه، وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق، وبكل سيء فإنه يرى الحق، وكيف لا يسوي والجميع عنده سواسية 3

المهم أن تجربة ابن سينا الصوفية لم تكن ذوقية بل كانت علمية وفق فيها إلى حدٍّ بعيد أشار فيها لعلوم التصوف وتجاربه كأنه عايشها، الأمر الذي جعل كبار العلماء يهتمون بمقالاته شرحا ونقدا أمثال فخر الدين الرازي، ونصر الدين الطوسي.

إن كتابات ابن سينا الصوفية مكنت لهذا العلم، وأسست لعلومه فلسفيا وسيكولوجيا، بإقحام الجانب النفسي في مراحل التصوف وأبعاده ومصطلحاته وهذه تعد مرحلة مهمة في مسيرة التصوف العلمية.

لكن الذي يعاب على هذا الطرح هو الجانب المنهجي، فقد جاء ممزوجا بفلسفة أرسطو وبعض من فلسفة أفلاطون، وهو أمر لا يقبل به كبار المتصوفة، لأن مفهومهم للنفس جاء خلاف ما ذهب إليه أرسطو أو ابن سينا، فالنفس يستلهم مفهومها من القرآن، ولذلك تأتي بترتيبات معرفية وأخلاقية يهمل فيها الجانب النمائي، وهذا ما سنلاحظه في الفصول المقبلة .

2 . أعمال عبد الرحمن بن خلدون التربوية والاجتماعية:

شهرة ابن خلدون العلمية لا تخفى على دارس، فقد أحاط بكل علوم وفنون وصناعات عصره، فقد احتوت مقدمته على أبواب متنوعة، منها باب في العمران البدوي والحضر وباب في البلدان والأمصار

وباب في الكسب وباب في العلوم وأصنافها والتعليم وطرائقه، ومن هذا الباب خص التصوف بفصل ممتع عدّه من العلوم الشرعية الحادثة في الملة.

طرح ابن خلدون متميز وبعيد عن التكلف، واهتمامه بالتصوف ليس من قبيل المودة، كما فعل بعض معاصريه، بل نتيجة حتمية اقتضتها منهجية البحث، فقد كان عليه وهو يبحث في علوم عصره، أن يعرج على دراسة التصوف من موقف دارس ناقد، وبدراية كافية يؤكد على علمية التصوف، فقد قال في مستهل هذا الفصل: (هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة)1 تحدث فيه عن أصوله الشرعية وطريقته ومصطلحات، وأهم العقبات التي تعترضه .

لكن أهم عمل اقترب فيه من الصوفية بامتياز هو كتابه: شفاء السائل لتهذيب المسائل، نشره وتحققه المستشرق اغناطيوس عبده خليفه اليسوعي المخطوط الأصلي موجود بمدينة سلا المغرب .

وتشتمل الرسالة على مقدمة وستة فصول وخاتمة، في البداية يجتهد ابن خلدون في استخلاص كنه الطريقة وتمييزها من سائر العلوم والطرق في توكيد ضرورة الشيخ لترويض السالك حتى يقيه مغبة المهالك.

أما الفصل الأول يتحدث فيه عن مدلول اسم التصوف. كما يعتني فيه بالجانب النفساني المتعلق بأعمال الباطن التي تنضوي تحتها دوافع الأعمال الخارجية، فالروح أصل الاستقامة ومنبع الصلاح والفساد، لأن الأعمال بالنيات والنفس أمارة بالسوء وأمارة بالخير، وعليه فإن الإنسان يجب عليه أن يسمع صوت الضمير ويتوخى دائما نور الله، وفي هذا نوع من التقدم في المعرفة الذوقية، أو معرفة الله التي يتقدم فيها إلى أن يصل إلى العلم اللدني، لكن هذه المعرفة تحتاج إلى تطويع البدن وتذليله لأنه المانع لها.

ومن هنا ينتقل إلى الكلام عن المجاهدات، ويراها على ثلاثة أنواع متفاوتة، أولها التوبة أي النزوع إلى مخالفة النفس، أو مراقبة القلب الذي هو مصدر الأفعال، والمجاهدة الثانية متعلقة بالاستقامة، وتعنى بترويض النفس وتهذيبها بالتصرف في الغرائز بمقتضى شرع الله، وتلعب الإرادة دورا هاما في تحرير القلب وتصفية العقل (وتجعل المريد يتساوى عنده الترك والفعل .. وتصرف حياته في طاعة الحق والعدل 2) . والمجاهدة الثالثة هي مجاهدة الكشف، تجلي الحقائق في القلب، فإذا كانت المجاهدة الأولى والثانية تعملان على تنقية القلب من الأدران، فإن المجاهدة الثالثة تتطلب فراغ القلب عن كل ما سوى الله، وشروطها كثيرة لمن يريد الوصول إلى الكمال .

وهي حصول التقوى والاستقامة، لا يتم ذلك إلا بالاقتداء بشيخ قد خبر المجاهدة، يهتدي المريد بأقواله وأفعاله (ويتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ البحر بقائده ويلقي نفسه بين يديه كالميت بين يدي الغسّال 1)

الفصل الثاني والثالث يتناول فيهما غرور المريد عندما تستولي عليه سلطة السكر والغيبة فيتكلم بما لا يسمح للسان التكلم به والتعبير عنه وهذه هي الشطحات أما الفصل الرابع يتحدث فيه عن العلم الحاصل من الكشف، وهو علم لا أثر في الكتب وهو لا كسائر العلوم، ولا يتم بالاختبار الشخصي، والشيخ الذي جربه وذاق مقاماته المختلفة يهيئ المريد لقبول ذلك العلم.

الفصل الرابع يستمر في الحديث عن اشتراط الشيخ في المجاهدة، فالعلم الحاصل من الكشف لا ينبغي أن يودع الكتب إذ هو أعلى وأثمن من أن يدون فيها، وهو علم لا كسائر العلوم فلا تستطيع بطون الكتب أن تتضمنه، ولطالما ظلّت مسألة التصوف مسألة تذوق الإلهيات فلا بد للمريد أن يعود إلى من ذاقها، فالشيخ يهدي عن يقين ويفتح الطريق للسالك ويصاحبه ولا خوف على من طاوع كالميت.

الفصل الموالي من الكتاب يعرض آراء المتناظرين في ضرورة الشيخ، وهو يستعرض الآراء المؤرخين ممن سبقوه ليستخلص رأيا ثابتا يعتمد عليه: (فكيف بالسالك إذا أحب خوض بحر التوحيد أن يظل وحيدا أمام الكتب يودّ أن يهديه به بل بشيخ خاض ذلك البحر ثم وقف على ساحله يدعو إليه)،إن المريد لتهلك الأوهام إذا ما سار بدون شيخ أو إذا اعتمد في سيره إلى الله وحده .

وفي آخر هذا الفصل يأتي المؤلف على سرد ما قيل في أصل كلمة الصوفية والمتصوفين، وهذا مجرد مقدمة لربط كلمة التصوف بالصفاء النفسي، وكأني به أراد أن يحتفظ بهذه النقطة للفصل الأخير وهو الفصل السادس لكي يناقش معنى النفس والروح والعقل والقلب، وما هو الكمال اللائق بهما؟ وبعد ذلك ينتقل إلى تدليل مفهوم العلم الكسبي والعلم الإلهامي والعلم الروحاني، لينتهي غلى معنى السعادة وتفاوتها وحرس أهل الهمم على الفوز بالنوع الأعلى منها وهو النظر إلى وجه الله.

ويختم دراسته بالتضرع إلى الله قائلا: (..أن يرشدنا ويدلّنا على السعادة بمعرفته ويهدينا إلى الصراط المستقيم ويجعل أعمالنا خالصة لوجهه عائدة برضاه من سخطه إنه على ما يشاء قدير1).

صولة ابن خلدون الصوفية جاءت متميزة لكونها تجربة عملية جمعت بين العلم والذوق، فحسه العلمي لا يسمح له بنقل كل ما قيل أو كتب عن التصوف، كما أن تجربته الذوقية جعلته مدركا لمفاهيم ومصطلحات التصوف، ورغم أن كتاب شفاء السائل لتهذيب المسائل جاء متأخرا بفترة زمنية طويلة عن المقدمة وكتاب العبر إلاّ أن المسحة النفسية التربوية هي الغالبة على الكتاب وكأن فصول التربية التي جاءت في المقدمة، مثل: فصل الشدة بالمتعلمين مضرة بهم، وفصل في أن تلقين العلوم إنما يكون على التدرج، وفصل في وجه الصواب في تعليم العلوم، كأن هذه الفصول جاءت لتقنن تربويا ونفسانيا للتصوف .

طرح ابن خلدون العقلاني يجعل المهتم بالتصوف يقترب مفاهيمه بأقل غرابة، وذلك بفضل المسحة العلمية التي يطبعها عليه. الزاوية الثانية تظهر من طريقة ابن خلدون في كتابة التاريخ والتي

نراها تتجلى في مؤلفه هذا، فمفردات الكتاب مدروسة لا حيرة فيها، وقد زادها عددا وتنوعا كون بها ثروة لغوية لا يستهان بها، يعبر من خلالها عن أحوال الصوفيون ويتحسس تجاربهم، ويغوص إلى أعماق عقليتهم.

تجربة ابن خلدون تعد واسطة لتذليل كل العقبات الإبستيمولوجية لفهم ظاهرة التصوف عن قرب، وهو عمل لا يمكن الاستغناء عنه.

ويمكن أن يضاف إلى هذه المرحلة أعمال المنتقدين للتصوف، أو خصوم المتصوفة، وهم كثيرون، وقد أفادوا حركة التصوف من حيث لا يدرون، كما أن أعمالهم أضاءت الموضوع، من الزاوية المنهجية، ومن أبرز رواد هذه المرحلة:

ابن الجوزي الحافظ الإمام جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي المتوفى 597 هـ ويجب التنبيه هنا إلى أن ابن الجوزي هو غير ابن قيم الجوزي الدمشقي تلميذ ابن تيمية الصوفي المتوفى سنة 751 هـ . فالأول صاحب كتاب تلبيس إبليس الذي انتقد فيه كبار الصوفية والثاني صاحب كتاب مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين وهو كتاب في قمة التصوف .

ابن الجوزي الدمشقي صاحب كتاب تلبيس إبليس، الذي تعرض فيه بالنقد لمسالك الصوفية واتجاهاتهم مما يراه خارجا عن الكتاب والسنة وسير السلف، وانتقد مؤلفي كتب التصوف أمثال أبي طالب المكي صاحب كتاب قوت القلوب، وأبي حامد الغزالي صاحب كتاب إحياء علوم الدين1 .

ويقول أن التصوف كان رياضة النفس ومجاهدتها عند الشيوخ الأوائل، إلاّ أن ذلك الوقت قد مضى وجاء قوم من الأدعياء تلبّس إبليس عليهم، فصدّهم عن العلم وأراهم أن المقصود من العبادة هو العمل، فلما أطفأ نور العلم عندهم تخبطوا في الظلمات، فمنهم من أراه أن التصوف هو ترك الدنيا بالجملة، فرفضوا الكسب، وركنوا إلى البطالة، وأهملوا ما يصلح أبدانهم، وشبهوا المال بالعقارب، ونسوا أنه خلق للمصالح، وبالغوا الحمل على أنفسهم حتى كان الواحد لا يذوق الطعام بالأيام، فيفسد بذلك تفكيره، ويختلط ذهنه، ويتوهم أشياء، كأن تكلمه الملائكة، أو يشاهد الله، وتنتابه الوساوس والخطرات من شدة الجوع ووطأة الفقر وقلة النوم 2.

وبلغ من تلبيس إبليس عليهم أن عادوا الفقهاء ودفنوا كتب الفقه وأغرقوها في الماء، ثم جاءت أقوام أخرى من المتصوفة زاد من التلبيس عليهم أنهم تشبها بأسلافهم لبسوا المرقع مثلهم، ولكنهم لفقوها من فاخر الثياب، وانتحلوا للمرقع نسبا يصلهم بالصحابة وآل البيت 3.

مناقشة ابن الجوزي للصوفية تتميز بالعقلانية في بعض المواقف عندما يتحدث عن تعذيب النفس وعلاقتها بالتفكير، ومبالغ فيها عندما تعرض لكبار العلماء أمثال الغزالي والمحاسبي وأبي القاسم القشيري، الأمر الذي استغرب بعض العلماء أن يصدر هذا من ابن الجوزي، وقد شك الشيخ عبد الرحمن

الثعالبي في نسبة كتاب تلبيس إبليس لابن الجوزي،وقال في كتابه رياض الصالحين وتحفة المتقين: ورأيت هذا الكتاب مهجورا لا يلتفت إليه، وليس هو. إنشاء الله . للجوزي صاحب المورد العذب الذي ألف كتبا عديدة في الوعظ وحكايات الصالحين وحشاه أن ينسب إليه، بل هو مناقض له، فإن الأعيان الذين طرز بهم هو كتبه ومواعظه، هم الذين تعسف بالرد عليهم هذا الشخص في تلبيسه1

ويرى كثير من المتصوفة ونقاد التصوف أن كتاب ابن الجوزي تلبس إبليس لا تقوم به الحجة ولا يصح به الاستدلال . وقد ذكر ذلك كثير من العلماء غير المتصوفة أنه كتاب ابن الجوزي لم يكن بين العلماء مما يصح به الاستدلال ويعتمد في النقل عليه، ومن العلماء من حرموا قراءته البتة 2.

وقد يكون في هذا النقد نوع من التحامل والتشدّد على ابن الجوزي، والمعروف أنه في نقده يدعم أقواله بأدلة يصعب دحضها 3 .

ومهما يكن من أمر كتاب ابن الجوزي، الذي بالغ في نقد الصوفية وأعمالهم، فإنه يعد بحثا معرفيا حاول فيه بأسلوب إبستمولوجي نقد طريقة الصوفي في المعرفة ن ونبه إلى خطورة الضعف البدني وأثره على التفكير والخيال، وهذا مبحث جديد، ومن هنا يكون ابن الجوزي قد أفاد التصوف من حيث لا يدري، فهو قد تنكر للبعض السلوكات التي لا تليق بمقام كبار العلماء لما فيه من شواذ، ذلك لأن بعض المنتسبين للتصوف أو بعض العوام سلكوا هذا الطريق متقيدين بغريب الأفعال اعتقادا منهم أن هذا هو السبيل السوي .

ومن الوجهة التربوية أن السلوك الشاذ لا يقاس عليه، وهي تجربة نحتاج إليها في بناء النظرية التربوية عند الصوفية لأنها تجربة تضيء الموضوع من شتى الزوايا وتفيد في كونها تجعل من العمل الصوفي موضع نقد بناء لا يكتفي فيه الدارس بنقل كل ما توارد عنهم وما خطر على بالهم من شطح وسكر وغيبة . بل يجب النظر بإمعان في كل هذه الأمور، أعمال ابن الجوزي هي بمثابة الحدود التي تمنع الدارس من الوقوع في اللامعقول .

ورغم تشدد ابن الجوزي على الصوفية فإن سلوكه كانت تنتابه نوبة تصوف في كثير من المواقف . ولعل أبرزها نزوعه نحو الهمة العالية، وهمة كونت فيه أنفة وشهامة تأبيان مقارفة الدنيا، وتنأيان عن الخضوع والتذلل في سبيل مطالب العيش .

وفي هذا الشأن يقول:

من رزق همة عالية يعذّب بمقدار علوها، وبيان هذا أن من علت همته طلب العلوم كلها ولم يقتصر على بعضها، وطلب من كل علم نهايته، وهذا ما لا يحتمله البدن، ويحب الإيثار ولا يقدر على البخل، ويتقاضاه الكرم والبذل، ويمنعه عزّ النفس عن الكسب من وجوه التبذل، فإن هو جرى على طبعه من الكرم احتاج وافتقر، وتأثر بدنه وعائلته، وإن امسك فطبعه يأبى ذلك، وفي الجملة يحتاج إلى معاناة

وجمع بين الأضداد، فهو أبدا في نصب لا ينقضي، وتعب لا يفرغ، ثم إن حقق الإخلاص في الآمال زاد تعبه)1.

وفي هذا إشارة عملية إلى المعاناة التي سيواجهها المريد السالك إن هو قصد طريق القوم، واسترخص كل ما في الدنيا، وقصد التعفف، وطلب الهمة، فإن ذلك يجر عليه متاعب جمة. وهذا ما ينبه إليه كبار المتصوفة ويحذرون أتباعهم منه.

ونهج ابن الجوزي النقدي لم يكن فريدا في نوعه فقد تبعه كثير من العلماء، خاصة أولئك الذين أكملوا مسيرته وهم كثيرون، نذكر منهم جمعية علماء المسلمين الجزائريين، التي انتقدت بشدة ما أحاط بالتصوف من البدع والخرفات عطلت حركة النهضة والتحرر في المجتمع الجزائري .

المرحلة الخامسة: أعمال المستشرقين

التصوف نازعته ثلاثة مدارس هي:

ا . المدرسة الإنجليزية ويتزعمها "رينولد ألن نيكلسون" وقد حاولت فهم التصوف من كتب الصوفية القديمة ونشرها بلغتها الفارسية أو العربية، ذكرت أن التصوف تطور لحركة الزهد في الإسلام . وقد سرحت هذه المدرسة في النظريات الفلسفية لدى الصوفية في الإسلام على ضوء الرهبانية النصرانية ورياضات الهنود في مستعمراتهم القديمة.

ومن ابرز أعمال نيكلسون مختارات من ديوان شمس تبريزي الرومي سنة 1898 تتذكرة الأولياء للعطار، ونشر بالعربية الكتاب المرجع في التصوف وهو اللمع للسراج سنة1918، وترجمان الأشواق لبن عربي سنة1911 وترجمة كتاب كشف المحجوب للهجويري سنة1911 وأسرار النفس لإقبال سنة 1920، كلها أعمال عظيمة في التصوف، ومن بحوثه القيمة " دراسات في التصوف الإسلامي " و" مذكرات عن كتاب فصوص الحكم لابن عربي " وكتابه " فكرة الشخصية في التصوف الإسلامي .

وفي نظره أن التصوف يرجع في نشأته إلى عوامل كثيرة، أبرزها الأفلاطونية المحدثة المتأخرة، متمثلة في أفكار ذي النون المصري ومعروف الكرخي، وفي ديانات المسيحية، والمذهب الغنوصي، وعوامل عملية نتيجة احتكاك المسلمين بثقافة الهند وفارس الدينية المتمثلة في مذهب أبي يزيد البسطامي، وعلى ذلك لا يمكن القول بأن التصوف إسلامي خالص، أو انه هندي أو فارسي، أو مسيحي، وإنما هو جماع كل ذلك1 .

ب . المدرسة الألمانية ويتزعمها " جولدزيهر"Goldziher وهي تحاول الكشف عن مصدر التصوف في تاريخ الفكر الإسلامي وحصر ما دخل فيه من مؤثرات بسبب اتصال العرب بوثنيات الهند وفارس، ثم اليهود والنصارى .

وجولدزهير له مصنفات مشهورة في الإسلام، وله في التصوف رسالة الحسين ابن منصور الحلاج، ودراسة عن الزهد الصوفي وعن الصوفية . ويقال عنه أنه متحامل كثير على المسلمين2 .

ج . المدرسة الفرنسية وهي أوسع المدارس الأجنبية في دراسة التصوف يتزعمها "لويس ماسينون Louis Massignon " وهي تهتم بحركة الاستشراق عامة كما تهتم بدراسة مواضيع الملل والنحل والكلام .

ومن أبرز أعمال مسينون: "أخبار الحلاج وبداوته" و" الشيخ المصلوب " و" الطريقة الحلاجية "، وكتابه " طواسين " .

ويبدو اهتمامه بالحلاج واحتفاله الشديد بحياته ليدين به المسلمين، ويقول إذا كانت حكاية صلب الحلاج حقيقة فلماذا لا تكون حكاية صلب المسيح حقيقة كذلك، والحكايتان تكاد تتطابقان، ثم إنه إذا كان اليهود مدانون بصلب المسيح، فالمسلمون مدانون بصلب الحلاج، والفرقتان على خطأ، والنصارى هم الفرقة الناجية 1.

وماسينون يرفض النظريات التي ترد التصوف الإسلامي إلى التأثيرات المسيحية واليهودية والهندية والفارسية، ويؤكد على مصادره العربية الإسلامية ومن الكتاب والسنة، ومن الأقطاب الذين تناولهم بخلاف الحلاج: الخرّاز، والمحاسبي، والنوبختي، والتستسري، وابن سبعين، والششتري، والسقطي، والرواق . ومن المسلمين المحدثين الذين أخذوا عليه: زكي مبارك، وعبد الحليم محمود، وعبد الرحمن بدوي، هذا الأخير الذي يحسبه صاحب الموسوعة الصوفية عبد المنعم حنفي من المستشرقين الغربيين، رغم جنسيته العربية، وتكوينه العربي، وهؤلاء عرفوا بدراساتهم للتصوف وقد كانت أعمالهم تتسم بمنحنى فلسفي سيكولوجي .

لقد لعب الاستشراق دورا كبيرا في التأريخ للتصوف، وفي كثير من المواقف يعود لهم الفضل في توضيح الجوانب النفسية والسيكولوجية المتعلقة بالتصوف، ولازال لهذه الأعمال الجبارة امتداد إلى يومنا هذا ن فقد ظهر مستشرقون كبار حملوا لواء كل من ماسينون ونيكلسون، ولازالت أعمالهم متواصلة

هؤلاء الأعلام اختصوا في كتابات التصوف، ودرسوه من شتى الجوانب، فمنهم من اختص بالجانب الفلسفي، مثل: كتاب Mystiques philosophes et frére Maçon لصاحبه Zarcone Thierry ومنهم من اهتم بالجانب التاريخي المقارن ككتاب: L'Islam Christianise étude sur le Soufisme، لصاحبه: Asin Palacios Miguel

والبحث الأكاديمي يقتضي الإطلاع على هذه الآراء المختلفة المشارب

المرحلة السادسة:

ترتيبي لهذه المرحلة ليس كرونولوجيا يأتي عقب المراحل السالفة الذكر، وإنما هو ترتيب يأتي حسب الخطورة التي تتركها هذه الدراسات على الفكر التربوي العربي الإسلامي، وهي خطورة كبيرة تشكلها هذه المرحلة، ذلك لأن روادها من علماء اليهود، أو فلاسفة يهود، تصدر أفكارهم عن عقيدة يهودية، كما هو الشأن في اصطلاحنا على الفلسفة الإسلامية أو فلسفة الإغريقية. هؤلاء اهتموا بالتصوف والدراسات النفسية، كما أن لبعضهم مقامات تزار قي مواسيم معينة، ببعض الدول العربية .

والغرض من هذه الدراسة هو التنويه إلى أقطاب الفكر اليهودي الذين يظهرون في لباس عربي، وبأسماء عربية خاصة، ونذكر منهم:

! – يوسف بن صديق (المتوفى 1149) القرطبي الأندلسي، يستخدم مذهب الأشاعرة ليهاجم به مذهب المعتزلة، ومن آرائه التي أخذها عن إخوان الصفا، الحكمة هي تحصيل المعرفة بالله، وتبدأ الحكمة عندما يعرف الإنسان نفسه، وكمال الحكمة أن يعمل بمقتضى المعرفة بالله، أي أن يتمثل الإنسان العارف صفات الله فتكون له القدوة 1.

2– أبوهارون موسى بن يعقوب بن عزرا (1055 . 1135) أندلسي، له كتاب بالعربية عنوانه " المحاضرة والمذاكرة " وكتاب " الحديقة في معنى المجاز والحقيقة "، يقول فيه بالفيض والعقل الفعّال 2.

3– باهي بن يوسف بن فاقوده ينسب إليه كتاب "معاني النفس" وله كتاب بالعربية الهداية إلى فرائض القلوب والتنبيه إلى لوازم الضمير "وفي هذا الكتاب تظهر اتجاهاته الصوفية الإسلامية3.

4 . سعد بن منصور بن كمونه البغدادي **من مؤلفاته باللغة العربية " تنقيح الأبحاث لعلل الثلاث"4** 5 . أبو عمران عبيد الله موسى بن ميمون**1 (1135 . 1204)، من دائرة الثقافة الإسلامية، يناصر العقل على النقل، ويقال أنه كان من أهل الكشف وله اتجاهات صوفية، من كتبه بالعربية " كفاية العابدين " وهو موسوعة في التصوف، وتأثير صوفية المسلمين واضح عليه، وعنهم أدخل الوضوء وغسل القدمين قبل الصلاة، والوقوف في صفوف متراصة عند الصلاة، والجلوس على الفخذين عند القراءة، وغاية الفلسفة عنده الاتحاد بالله2.**

6 . نسيم بن يعقوب القيرواني: **(القرن العاشر والحادي عشر) كان متكلما معتزليا يفتتح كتابه بحمد الله والثناء عليه . وهو يقول أن المعرفة التي يعطيها التنزيل هي المعرفة الحقة لأنها الثبت والأرسخ 3.**

7 . هبة الله بن ملكا أبو البركات البغدادي **(1077 . 1165) فيلسوف العراقيين، نشأ في بغداد بين علماء السنة والحديث وتأثر بهم، قيل أنه اسلم طلبا لسلامة نفسه أو طلبا لدوام النعمة، ينكر مذهب الفيض الذي قال به الأفلوطنيين، ويعرف الزمن بأنه مقدار الوجود لا مقدار الحركة، والزمان يتعلق بوجود الخالق كما يتعلق بوجود المخلوق، ويبدو في هذا الاتجاه أنه كان متأثرا بابن سينا 4.**

نكتفي بهذا العدد الذي يحسب على الثقافة الإسلامية، كما تذهب إليه بعض الدوائر، خاصة دائرة المعارف الإسلامية، وكما هو معلوم أن اليهودية كان لها على مر التاريخ تأثيرات سيئة على المسلمين، وكانوا عوامل فرقة وفتنة في الإسلام، كما شهد بذلك تاريخ الفرق الإسلامية.

وفي هذا السياق تتجه جهودهم إلى تشويش الفكر الإسلامي وإلحاق الشكوك به فاليهودية حركة عالمية تأخذ عدة ألوان وأشكال، تارة تظهر في شكل حركة البنائين الأحرار الماسونية، وتارة في حركة التحليل النفسي بزعامة فرويد، التي يدرجها الدكتور عبد المنعم حنفي ضمن موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهود، وفي هذا الشأن يقول: (فرويد كمنظر لم يتجاوز الفكر اليهودي، بل أصّله، وأعطى فكرة عن المفاهيم اليهودية السائدة في المجتمعات التي تجعل من التوراة أساسا فكريا لها، بأن بيّن كيف أن هذه المفاهيم مغروسة في الطبيعة الخالصة لليبيدو وعملياته 1) .

وفرويد في كتابه "الأنا والهو" يقول: (إن تطور الأنا يتقدم من إدراك الغرائز إلى السيطرة عليها، ومن الانصياع لها إلى كبحها، والأنا الأعلى، وهو في جانب منه تَكَون من ردِّ الفعل ضد العمليات الغريزية في الهو، والتحليل النفسي هو الوسيلة المقدرة لها أن تكون أداة الانتصار على الهو بالعقل).

يقول عبد المنعم حنفي:(أن هذا الطرح له جذوره في الدين اليهودي، التي هي ديانة أخلاقية أكثر من أن تكون ديانة بعث وحساب. ولما كان فرويد لا يؤمن بالشعوب والإنسانية المتوسطة، فإنه وضع لهذه الأخلاقيات العالمية الجديدة هدفا لا يحققه سوى الصوفية، وحركة التحليل النفسي هي حركة الطليعة النشطة التي تقع على عاتقها هذه المسؤولية، وإن كانت صغيرة إلا أن تنظيمها الحسن سيؤدي بها إلى انتصار المثال الخلقي اليهودي 2).

عامة القول أن هذه المداخلة تهدف إلى رسم الحدود والمعالم التي يتشكل منها البناء الصوفي، وكيف أن كثيرا من العوامل تداخلت مع بعضها البعض لتساهم في تكوين هذا المعلم، وقد قيل الكثير عن هذا الجهد الفكري والفلسفي والأخلاقي الصوفي، فقد كان مرتع لكل النظريات والإيديولوجيات